مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران02/ المجلد 12 ع 02
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

إعـادة تفعيـل القيم الثقافية في ظل التغيـرات الاجتماعية الراهنة وفق نظرية مالك بن نبي

Reactivating the Cultural Values in Light of the Current Social Transformations, according to the theory of Malek Bennabi

كمـال عمتـوت* kamel Amttout amttout.kamel@gmail.com	علم اجتماع	كلية العلـوم الإنسـانية والاجتمـاعية. جامعة طاهري محمد- بشار، الجزائر
خديجة قدوس khadidja Kadous kadouskhadidja@gmail.com	المنطـق وفلسفـة العلـوم	كلية العلـوم الإنسـانية والاجتمـاعية/ جامعة محمد بن أحمد- وهران2، الجزائر

DOI : 10.46315/1714-012-002-014.

الإرسال: 2022/09/10 **القبول**: 2023/04/30 **النشر**: 2023/06/16

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تناول إشكالية تفعيل القيم الثقافية في المجتمع في ظل التحولات الاجتماعية الراهنة وفق نظرية مالك بن نبي، من خلال التركيز على تداعيات الهزيمة النفسية الداخلية للشعوب المستعمرةعلى الهوية الثقافية، من جهة، وخطر الحداثة المعاصرة من جهة أخرى. .

ومن بين النتائج التي تم التوصل إليها، هي أن نظرية ابن نبي في إطار تحليله للثقافة استطاع أن يقدم كل آليات حماية البناء الفكري والثقافي للشعوب المستعمرة التي تمكننا اليوم من مواجهة كل تحديات الثورة الرقمية المعاصرة، فبناء ذات واعية وقوية نفسيا كما رآها بن نبي يعتبر المنطلق الأساسي في إعادة تفعيل القيم الثقافية.

كلمات مفتاحية: تفعيل؛ القيم الثقافية؛ التحولات الاجتماعية؛ العولمة الثقافية؛ القابلية للاستعمار.

Abstract:

The goal of this study is to address the issue of activating cultural values in society in the current social transformations using Malik Ben Nabi's theory, by focusing on the implications of colonial peoples' internal psychological defeat on their cultural identity, on the one hand, and the danger of contemporary modernity, on the other .

One of the study's findings is that Ibn Nabi's theory, within the framework of his cultural analysis, was able to provide all of the mechanisms for protecting colonial peoples' intellectual and cultural constructions, allowing us to face all of the challenges of the modern digital revolution todays cultural.

Keywords: Activation; cultural values; social transformations; cultural globalization; susceptibility to cocolonization.

* - الباحث المُرسل: amttout.kamel@gmail.com

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

1- مقدمة

إعادة تفعيل القيم الثقافية في ظل التغيرات الاجتماعية الراهنة يطرح العديد من الإشكاليات على مستوى المنظومة الفكرية والقيمية، سواء ما تعلق منها بجملة الأفكار والسلوكيات الدخيلة التي أصبحت منتشرة في الآونة الأخيرة التي تسببت فيها التكنولوجيا المعاصرة وبرامجها المتنوعة، أو بجملة الأفكار المسمومة التي غرسها المستعمر في نفوس الشعوب المستعمرة ولا يزال مفعولها سار إلى اليوم.

وبما أن هذا الموضوع كان من الإشكالات التي أولاها مالك بن نبي اهتماما كبيرا، من خلال دراسته للمستعمر، وأساليبه المتنوعة التي يتبعها في تدمير الشعوب المستضعفة فكريا واقتصاديا، وفي هذا المجال ركـــزت أبحاثه على مشكلة الثقافة وقدم تحليلا اجتماعيا دقيقا، شخص فيه الأمراض التي تنتهك روح المجتمعات، وحصرها في مجموعة الأفكار الميتة التي ينظر إليها البعض على أنها ميراث عن السلف غير قابل للمراجعة والنقد، وأخرى أفكار مسمومة يعمد المستعمر إلى نشرها بما يخدم مصالحه.

ونتيجة للأهمية البالغة للدراسات التي قدمها بن نبي في مجال الفكر والثقافة، كان من الضرورة المعرفية وحتى المنهجية، أن نستفيد منها في تحليل الواقع الثقافي للإنسان الرقمي المعاصر، وتحدياته أمام الثورة الرقمية، فالإشكال الذي يجب أن يطرح في هذا السياق، **ماهي آليات إعادة تفعيل القيم الثقافية الأصيلة في المجتمع، في ظل التغير الاجتماعي الراهن استنادا لأطروحات مالك بن نبي؟**

ومن بين التساؤلات الجزئية التي يمكن طرحها في هذا المقال ما يلي:

- كيف يحدد الواقع المعاصر مفهوم القيمة الثقافية؟
- كيف أثرت التحولات الراهنة على تمييع القيم الثقافية وانصهارها؟
- هل بالإمكان فعلا إعادة تفعيل القيم الثقافية من جديد؟

2- أهـداف الدراسة

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم تحليل اجتماعي للثقافة المتزامن مع الثورة الرقمية المعاصرة، انطلاقا من معطيات نظرية مالك بن نبي، وعلى هذا الأســاس تم تحديد أهدافها على النحو التالي:

- معرفة تأثير التغير الاجتماعي والتطور العلمي على القيم الثقافية.
- رصد العلاقة بين عوامل الحرب النفسية والحداثة وعملية الاختراق الثقافي.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

- معرفة الأساليب الفعالة في كيفية إعادة تفعيل القيم الثقافية.

3- اختراق القيم الثقافية ما بين عامل القابلية للاستعمار وعامل الحداثة

يطرح هذا الموضوع التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه القيم الثقافية في المجتمع. فبالنسبة لمعامل القابلية للاستعمار حسب تصور بن نبي يتعلق بالجانب السيكولوجي للفرد، فإذا كان المعامل الاستعماري(Coefficient colonisateur)، يمثل مجموعة العقبات والعراقيل الخارجية التي يعمل فيها "على فرض كل حركة في حياته تتماشى مع النموذج الاستعماري." (Bennabi M. , 2005, p. 155)فإن معامل القابلية للاستعمار(coefficient auto-réducteur) يعبر عن ذلك الاستلام الداخلي وهو في نظره الأكثر خطورة " لأنه يجعل من الصعب علينا أن ندرك كيف سيتطور هذا الفرد ضمن الحدود ذاتها، التي تفرضها عليه أنشطة حياته. (Bennabi, 2005, p. 155)فيرضى بكل القواعد التي تمليها عليه القوى المسيطرة، وفي مقابل هذا المعامل هناك تحولات اجتماعية مست حركة المجتمعات الحديثة نجمت عن تلك التطورات العلمية والتكنولوجية والرقمية، وعليه كان البحث في هذه العوامل يقدم لنا صورة متكاملة عن استراتيجيات إعادة تفعيل هذه القيم الثقافية في المجتمع.

3-1-الهزيمة النفسية و أثرها في تعطيل دور الذات الثقافية

تعاني الشعوب المستعمرة حسب بن نبي من تداعيات الحرب النفسية التي مارسها الاستعمار عليها خلال سنوات السيطرة والعنفوان، مثل الفترة الاستعمارية التي عاشتها الجزائر تحت وطأة المحتل الفرنسي من 1830 إلى سنة 1962، فالخطة الجيو- سياسية المتبعة حسب تصوره هي زرع الاستسلام والخنوع داخل النفس إتباعا لمخطط من أجل السيطرة على ثروات بلد معين وجغرافيته، فيبدأ بالسيطرة على نفسية وعقول أصحابها أولا. وبالطبع هذا الأمر ينتج عنه لا محالة القابلية اللاشعورية للكيان الاستعماري بكل أنواعه، وتكون بالمساس بمقدسات هذا الشعب وقيمه الثقافية والأخلاقية الأصيلة الانطلاقة الأولى لتحقيق وجوده خاصة وإنها تعتبر "عنصرا جوهريا في بناء (أنا) الفرد في المجتمع الحديث."(بن نبي و عبد الصبور، 2000، صفحة 23)

ويتم هذا الأمر حسب بن نبي بتتبع الجهاز المفاهيمي الذي يحوي في جعبته مجموع البنى الفكرية والقيم الثقافية التي تعبر عن كينونة ذلك الفرد وأصالته، لذلك فإن أول ما يراهن عليه المستعمر هو رصد طبيعة هذه البنى الثقافية والكشف عن خصائصها وتحديد مواطن القوة فيها

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

والضعف، فمن " أجل الحفاظ على احتكار الأفكار فقد وضع في العالم نظامًا كاملاً من المراقبين الذين يكتشفون الأفكار ويتبعون تداولها بعناية."(Bennabi M. , 2014, p. 54)

وبطبيعة الحال هذا التحوير والترصد الفكري يتم بطريقة فنية رياضية، وفق معادلة زيادة حدود جديدة هي من إبداع المستعمر بما يتناسب مع مصالحه وأهدافه إلى الفكرة الأصلية، يكون لها تأثير لا محدود، يسلب عن طريقها قوة هذه الفكرة الأصلية لتحل محلها أفكار مدمجة، وهذه العملية ترتبط بالدرجة الأولى على الرد الفعلي للذات "وبالتالي يطبق عليه تقريبًا قواعد الفنون الأولية من أجل تعديل قيمته بشكل مفرط أو افتراضي، وفقًا لاحتياجات سببية، ووفقًا للملفات النفسية التي تشير إلى أي معنى يجب أن يتم العمل. تستند رياضيات الأفكار هذه من جهة على القيمة الجوهرية للأفكار وعلى قواعد علم رد الفعل البافلوفي."(Bennabi M. , 2014, p. 55)

وإذا طرحنا خطورة هذا العامل في ظل التغيرات الاجتماعية الراهنة فإن الأمر يزداد سوءا مع ظاهرة العولمة الثقافية المعاصرة التي تعرفها المجتمعات العالمية، نتيجة التداعيات الخطيرة التي نتجت عنها والتي أصبحت هاجسا يهدد الهوية الثقافية في جوهرها وخصائصها الأصيلة، وهذا الأمر طالما أشار إليه مالك بن نبي في حديثه عن مشكلة الثقافة وعن إنسان القرن العشرين.

3-2-الحداثة و أثرها على تغيير السلوك الثقافي في المجتمع

من المتفق عليه أن التطورات العلمية المعاصرة جعلت من العالم شبه قرية صغيرة ليس لها حدود، يمكن للإنسان أن يسافر فيه كيف يشاء عن طريق الضغط على بضعة الأزرار فقط، ويكشف ثقافات العوالم الأخرى خاصة في ظل الانتشار الواسع للثورة الرقمية والمعلوماتية اليوم، وهذا الأمر لم يغيب عن مخيلة مالك بن نبي، فحداثة القرن العشرين ومعايشته لتطوراته كان له الصدارة في تناوله والإشارة إلى تداعياته الخطيرة على ثقافات الشعوب, في إطار معالجته لمشكلات الثقافة، وأساليب توجيهها في الدول الأفرو. أسيوية أكد على أنه " من الواضح أن الضمير الإنساني في القرن العشرين لم يعد يتكون في إطار الوطن أو الإقليم."(بن نبي و عبد الصبور، 2000، صفحة 121)وبالتالي فالفكر سيجد نفسه يتشرب أفكار أخرى خارج الحدود التي ألفتها على مستوى جميع المجالات" لأنه القرن الذي سجل الأحداث الكبرى، سواء في مجال العلم، أو . كما سنرى. في المجال النفسي، أو في المجال الأخلاقي والديني. ففي كل هذه المجالات هبت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق، وعلى أية حال فهي قد غيرت ملامح الزمن والمجتمعات."(بن نبي، 1991، صفحة 12).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

فحسب بن نبي "والنظر في التخطيط العالمي الذي يجب أن تندمج فيه الثقافة الإفريقية يكشف من ناحتين أنه يوجد نوعان من الناس يختلفان اجتماعيا: نوع كان أو لا يزال مستعمر، ونوع كان ولا يزال مستعمرا."(بن نبي و عبد الصبور، 2000، صفحة 122)فطبيعة الحال صور هذا الاستعمار، تجلت في صناعة قوالب ثقافية جاهزة، تتناسب مع مصالحه وتصدرها إلى هذه الشعوب بأساليب فنية متنوعة تقع ضحيتها النفوس المهيأة القابلة للاستعمار والقابلية للتغريب " فالثقافة أصبحت تحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي لأن المنابع التي سوف تستقي منها أفكارها ومشاعرها، والقضايا التي سوف تتبناها، والاستفزازات التي سوف تستجيب لها، والأعمال التي سوف تقوم بها، لا تستطيع هذه كلها أن تتجمع في ارض الوطن."(بن نبي و عبد الصبور، 2000، صفحة 121)

وعليه فالمسألة اليوم أصبحت موازين قوى، فالدول العظمى التي تملك قوة سياسية واقتصادية وعلمية، هي التي بيدها زمام أمور تحريك عجلة التنمية البشرية العالمية، ومن ثم لها القدرة الكاملة على فرض ثقافتها ومخرجاتها العلمية والفكرية بكل ما تحتويه من إيجابيات وسلبيات، ومن أجل هذا كان على الشعوب الضعيفة أن تعمل جاهدة لتحقيق تطورها المتكامل الذي يمس جميع الميادين الحياتية حتى تستطيع أن ترتقي إلى مصاف الثقافات العامية، وتفرض وجودها الذاتي، وتحمي أمنها الفكري، وتحافظ على استقلاليتها الثقافية مثلما أكد بن نبي في كلامه عن ثقافة الدول أفرو أسيوية "فالثقافة الإفريقية مجالها العالم ضرورة، فيجب أن تصعد أعمالها إلى هذا المستوى، مميزة بين الأعمال التي تتصل ببناء حضارة افريقية، وتلك التي تبعث بإشعاع تلك الحضارة خارج حدودها."(بن نبي، م، 2000، الصفحات 121-122).

والانتشار الواسع للعولمة الثقافية ازداد تصعيدا في القرن الراهن، مقارنة بحداثة القرن الماضي، فالتحول الذي عرفته المجتمعات الأساسية من مجتمعات صناعية إلى مجتمعات رقمية، أصبح الإنسان فيها عبارة عن رقم مجرد من كل خاصية تعبر عن إنسانيته واحتياجاته وطموحاته، وهذا الأمر كان له أثره الواضح على العالم ككل، لكن يزداد ويتعمق كلما كان الحديث عن الدول الضعيفة، والتي لا زالت تحت وطأة شعور القابلية للاستعمار الذي أكد عليه بن نبي سابقا، فالاعتماد على الغربيين - حسب ما يؤكد عليه "النيجري محمود" في كتابه الأمن الثقافي العربي "في تشكيل أوجه الحياة الثقافية، والنظر إلى تقدمهم بانبهار وإكبار دفعنا بغير وعي منا وبوعي أيضا إلى تقليدهم واقتفاء آثارهم في الكثير من مظاهر الثقافة."(النيجري، 1991، صفحة 37)التي تجلى أثرها على مستوى الفكر والأسلوب والفن ولغة الخطاب وغيرها من الجوانب الثقافية.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

فاتباع الآخر والولع به كما بينه ابن خلدون في قوله: "أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"(ابن خلدون، 2001، صفحة 184)، والانسلاخ عن التراث، تجسده الحياة المعاصرة في جميع حيثياتها، إلى المستوى الذي أصبح فيه الإنسان الأصيل والواعي الغيور على دينه وثقافته يعيش في دائرة الاغتراب، ويصنف في خانة التخلف والتحجر الفكري، في حين الفرد المتشبع بالنفايات الغربية يصنف في خانة التفتح، وهذا ما هو إلا نتيجة من نتائج فاعلية تحوير الأفكـار، والتلاعب بالمفاهيم التي اتبعها المستعمر كما أشار إليها بن نبي. وعليه التساؤل الذي يطرح في هذا السياق هو: كيف يمكننا أن نتجاوز هذه الأزمة الفكرية والثقافية وحتى الأخلاقية في ظل الثورة المعلوماتية الراهنة؟

4- إستراتيجيـة حضاريـة لإعـادة تفعيـل القيمـة الثقافيـة

في التحليل السابق تبين أن المرض الداخلي الذي تعاني منه الشعوب المستضعفة أخطر وأكبر بكثير من التحديات الخارجية التي تسببت فيها التطورات التكنولوجية، وهذا ما دعا بن نبي إلى التركيز على ضرورة مراجعة الذات وتمحيص المـوروث، ومراقبة كل فكرة نستوردها بكل وعي وقابلية للتغير الإيجابي.

4-1-التجديـد الداخلي وتفعـيل آليـة النقـد

الكـلام في هذا المجال يقـود لا محالة إلى طرح إشكالية رئيسية عانت منها الشعوب المستعمرة ولا زالت تطرح في الساحات العلمية والفكرية وحتى في التعاملات البسيطة التي تكتنفها الحياة اليومية للفرد، وهي إشكالية التقليدي والاستبداد للموروث وبين العصري والتمجيد للغرب، التي كانت من صنع الاستعمار ونتيجة من نتائج الحداثة والعولمة الثقافية، أدت إلى الانشطار والانقسام في صفوف المفكرين والنخبة، مما تسبب في توسيع الهوة بين هذين الشقين، وحيد أصحابه عن الطرح المعتدل سواء بالإتباع الأعمى للموروث، أو بالتنكر التام له.

فمخطط المعامل الاستعماري (Coefficient colonisateur)، بذل كل ما في وسعه في هذا المجال من أجل تعطيل دور القوى الفاعلية في المجتمع وصرفها عن الطريق الصحيح، واجتهد كل الوقت في تخدير فكر الشعوب، وتغييب وعيها، فحسب مالك بن نبي" فالاستعمار يدخل المسرح حتى يعيد إلى جوه صمتنا يغار ويحرص على بقائه كي يطيب للنائمين نومهم."(بن نبي و مسقاوي، 1981، صفحة 16)وهذا النوع من التخطيط، هدفه ترسيخ الأفكار المسممة أو المميتة، التي لا تعبر سوى عن نفايات حضارة أخرى حد تعبير بن نبي "الجزء الميت من هذه الحضارة.." (Bennabi M. , 1990, p. 126)

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

وعليه كان من الواجب سد هذه الثغرة والتفطن لهذا الفخ قبل الوقوع في الجدال الفكري والطائفي وحتى الحزبي بين أبناء الشعب الواحد بين طرف منفتح على كل ما هو وارد من الحضارة الأخرى، وبين من هو منغلق على ذاته ممجدا لكل موروث، وفي كلا الاتجاهين يظهر لنا صور غياب الوعي وغياب الآلية النقدية للمكتسبات الثقافية. وكأننا نلاحظ في هذا المشهد تعطيل تام للأفكار الفاعلة التي تؤمن بها القوى المغيرة في المجتمع، وانحدارها نحو التعصب والهشاشة، وحسب بن نبي هذه من أهم المخططات الاستعمارية التي نجح فيها عن طريق محاربته للفكرة المجردة، وسبيله في هذا هو استخدام "الفكرة المتجسدة في مستوى الطبقة المثقفة، فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة."(بن نبي و مسقاوي، 1981، صفحة 16)

هنا يكمن الخطر الحقيقي للمستعمر، من حيث دقته وفطنته، فهو يعرف تماما أنه لا يمكن القضاء على ثقافة شعب معين إلا بالتغلغل في أعماق نفسيته، ومن ثم العمل على دمج أفكاره وتحويرها بما يتناسب مع مخططاته، فالنافع والأكيد حسب تصوره هو إزالة الأفكار الفاعلة والنامية التي تبني المجتمع وتحافظ على وحدته الثقافية والوطنية بدل إزالة الأشخاص على هذا النحو يستعين بالعامل النفسي في فهم منطق تفكير هذه الذوات، وفق إستراتيجيته الخاصة بالحرب الفكرية والنفسية التي يمارسها "فهو يرسم خططه الحربية ويعطي توجيهاته العملية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة، معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مستوياته وطبقاته."(بن نبي و مسقاوي، 1981، صفحة 17)

ومن هذا المنطق الاستعماري كان من واجب النخبة أخذ زمام أمورها في محاربة كل أشكال التسلط الفكري، خاصة تلك التي ذهبت في صفوف التمجيد الأعمى للثقافة الغربية، متغافلة عن القيم الأصلية والفاعلة التي تبنى بها المجتمعات وتستمر بها الدول، واستغرقت مساعيها في البحث في النفايات فقط، بدل الانتفاع بما هو بناء، فحسب تصور بن نبي الأمر لا يتعلق بمسألة "التساؤل عن سبب وجود عناصر مميتة في الثقافة الغربية. ولكن لماذا تبحث النخبة المسلمة على وجه التحديد عن هذه العناصر."(Bennabi M. , 1990, p. 126)وهذا ما يدعو إلى ضرورة تنمية الوعي حتى لا نسقط في فخ العولمة من جديد.

4-2-تنمية الوعي الذاتي والتصدي للأفكار المدمجة

الوعي الذاتي هو إدراك الفرد لما يصدر عنه من سلوكيات ومعرفة مصدرها والقيم التي يرتكز عليها، والمبادئ التي يؤمن بها، وحسن إدارة ذاته وتوجيه إرادته نحو هدف بناء يساهم في تطويره ومن ثم تطوير مجتمعه، كما يعني الفطنة والحذر من كل انزلاق قد يتسبب في تشتت فكره وحياده

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

عن جادة الصواب، ومن هذا كان عالم الأفكار هو المنوط بالاهتمام والتنمية كما أكد عليه بن نبي، ومرجع هذا الاهتمام أن الفكرة هي "محددات نفسية للسلوكيات الفردية، أو هي الموجهات Drives الروحية التي بدونها لا يمكن القيام بأي عمل."(بوكروح و بن جمال، 2016، صفحة 185)وهذا ما ذهب إليه علماء التنمية البشرية، في إقرارهم على أن كل فكرة تتحول إلى شعور، وهذا الأخير يتحول إلى سلوك، ومن ثم يتحول السلوك إلى عادة يومية تتحدد بها معالم الشخصية وأدوارها في المجتمع.

أما عن الأفكار الروحية التي ينطبع عليها أفراد مجتمع معين، يحددها بن نبي بالأفكار المطبوعة تتعدل مع التفاعلات، وفي هذا السياق يشبهها بالقرص الذي يتم إضافة إليه بعض النغمات مع تعاقب الأجيال "عالم الأفكار هو قرص يحمله الفرد عند ولادته. إنه قرص يختلف من مجتمع إلى آخـــر بملاحظات أساسية معينة [...] تتم طباعة قرص كل مجتمع بشكل مختلف ويضيف الأفراد أو الأجيال ملاحظاتهم الخاصة به باعتباره التوافقيات للملاحظات الأساسية. إن عالم الأفكار عبارة عن قرص يحتوي أيضًا على ملاحظاته الأساسية، ونماذجه الأصلية: تلك هي الأفكار المطبوعة."(Bennabi M. , 1990, p. 51)وهي الأفكار نفسها التي تطورت من خلالها النظم والقوانين في تاريخ الحضارة الإسلامية، وجعلتها تتصدر الحضارات العالمية في تلك الحقبة، فمن خلالها قام المسلمون "بتحويل بيئة بدائية من الأعلى إلى الأسفل، ووضع طاقتها الحيوية بين حدود الحضارة وإخضاعها لقواعدها ومعاييرها ونظامها الصارم."(Bennabi M. , 1990, p. 52)

فالركـــود الذي تعاني منه البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر وغياب الوعي الذاتي مرده إلى التخلي عن الأفكار الأصيلة، خاصة في عصر الثورة الرقمية المعاصرة، فهذه الحداثة كما يراها بن نبي "أفقدت أو أتلفت قداسة الوجود، في النفوس وفي الثقافة وفي الضمائر، ولقد أتلفت القداسة لأن عدتها شيئا تافها لا حاجة لنا به."(بن نبي، 1991، صفحة 43)واضمحلت بسببها العديد من القيم الثقافية الأصيلة التي كانت في نظر أسلافنا من معالم الشهامة والشجاعة التي يكتمل بها الوجـــود الإنســاني، ويحقق من خلاله إنسانيته.

ومن صـــور غيـــاب الـــوعي الذاتي الذي انعكسا سلبا على هويتنا الثقافية، هو الاندماج الكلي في فكر الآخر، والتغني بأشعـــاره، واستعارة قاموسه اللغوي والفكري فيما لا ينفع، مما كان له أثره على تحول الجهاز المفاهيمي عن مساراته الأولية، فلم يعد ذلك الجهـــاز الذي يمتد إلى تلك النماذج الكلية التي تعبر عن أصالتنا التاريخية، قدر ما أصبـــح جهاز مدمج بجملة الأفكار الدخيلة على ثقافتنا وأخلاقنا وقيمنا، زرعها المستعمر وتقبلتها نفوسنا سواء بشعـــور منا أو بدون شعور، فالمستعمر الأوربي على حسب تعبير النيجري محمود في كتابه الأمن الثقافي. استطاع

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

" تنشئة جيل من المتغربين من أبناء العرب يبشرون بثقافته التي غزا بها."(النيجري، 1991، صفحة 38)وتجلى هذا الأمـر في العديد من كتابات النخب العلمية والثقافية التي شككت في العديد من الأفكار الكلية التي تمس بالمنظومة والثقافية الأصيلة، في دعوة صريحة أو خفية إلى نوع من التغريب.

ووفقا لهـذه الاعتبارات التي طرحت، نجد أن منظومتنا الثقافيـة في حاجـة ماسة إلى إستراتيجية قويمة تخرجها من دائرة الظلام الذي تعيش فيه إلى دائرة النور والتسامي الذي يعبر في قوامه عن الفاعلية الحضارية، والتخطيط الدقيق، والهوية الأصيلة التي لها القدرة على التميز بين الفكرة البناءة والنفاية المسمومة، خاصة وأن الغزو الثقافي اليوم" نجح في جعل قيمة مكان قيمة، واهتمـام بدل اهتمام."(الغزالي، د.ت، صفحة 34)فالقيـم الأخلاقية العليا لم تعد تحمل تلك المعاني الصافية والزاد القيمي الذي عهدناه مع عصر النماذج الأولية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، بل أصبحت تعبير عن الضعف والاستسلام، امتثالا في هذا ببعض الفلسفات الغربية التي أسست للقوة والإلحادية.

وهناك العديـد من الموضوعات الدينية والثقافية مثل: مسألة الجهاد والميراث وحرية المرأة التي أصبحت تطرح بشكل جريء، وتفسر بتفسيرات مبطنة بالدعوة إلى التغريب والتعالي عن الموروث، وهذا ما يوضح لنا فعالية نظرية مالك بن نبي من حيث تأكيده على أن المجتمع الإسلامي أصبح يعيش زمن الفكرة المدمجة سواء بالانغلاق والعيش في مستنقع الأفكار الميتة التي ورثها وتعصب لها، أو الانفتاح التام والانصهار في ثقافة الآخـر بدون أي تمحيص أو تدقيق لمحتواها. أما بالنسبة للنماذج الكلية الأصيلة التي تحفظ القيم الثقافية، وتطور الحضارة، أصبحت مساحتها ضيقة، وجادة الصـواب حسب بن نبي" في الشبر الذي يفصل بين الإفراط والتفريط، وتحديده يتوقف على عملية تحليل للحضارة نفسها."(بن نبي، 2002، صفحة 198)

من خلال معادلـة التوازن التي نظَّر إليها: "إنسـان"، "تـراب"، "وقـت"، والتي بها تبنى الحضارة وتصل إلى مصاف الحضارات الأخرى، ففي الحين الذي نبني فيه الفرد الصالح الفعال، ونحافظ على الموارد التي نملكها ونطورها، ونستثمر الوقت بشكل إيجابي، يمكننا أن نتحدث عن البناء والتشييد، فالأخـذ بزمام استراتيجيات التغيير، لابـد له من نهضة فكرية تكون بؤرتها الإنسـان، تعمل على "تجديد الرجل، بما يتفق مع التقاليد الإسلامية الحقيقية وأساليب العلوم الجديدة"(Berghout, 2001, p. 68)ووفقا لهذا الغرض، قام ميثاق النهضة الثقافية لأفريقيا (2006) ببيان يؤكد فيه على أنه "يجب على الشعوب الأفريقية أن تقيّم بدقة مكونات ثقافاتها بهدف

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

القضاء على العناصر القديمة وإبعاد الجوانب الأجنبية التي يفرضها الاستعمار" (Kovács, 2009, p. 24) لأن نجـــاح مشروع إعادة تفعيل القيم الثقافية هو من يضمن نجاح التغيير واستمراريته.

وبناء على هذا التحليل لمسألة إعادة تفعيل القيمة الثقافية في المجتمع في ظل التحولات الاجتماعية الراهنة، يمكننا تأكيد الفرضيات التي تم طرحها في مقدمة هذا البحث. ففي سياق الهزيمة النفسية التي تعيشها بعض الشعوب المستضعفة وفي إطـــار الانتشار الواسع للثورة الرقمية بات من السهل جدا اختراق قيم المجتمع المختلفة، بما يثبت الفرضية التي تقترح أن القيمة الثقافية المعاصرة أصبح يحددها العالم الافتراضي ومحتوياته، فمن العسير معرفة طبيعة المعلومات الواردة إلينا، ومن الصعب حماية الفكرة الأصلية التي تكلم عنها بن نبي، وهذا ما يؤكد صحة فرضية أن الفيض المعلوماتي تمكن من صناعة التناقض في الجهاز المفاهيمي للشعوب، أما بخصوص فرضية إعادة تفعيل القيم الثقافية فهي مسألة عويصة، ويمكننا القول أن هذا ما أثبته الواقع المعاصر، من خلال مظاهر الانحلال والتبعية للغرب، والولع بمنتجاته المادية، وامتصاص كل نفاياته، وعلى هذا النحو تصبح مسألة إعادة تفعيل القيمة الثقافية تحتاج إلى تفريغ لما تم اجتراره من مخلفات سامة ثم تعبئة جديدة صافية المنبع وهذا الأمر يحتاج للوقت والقوة والحنكة.

5- خاتمة

حاولت هذه الدراسة البحث في إستراتيجية تفعيل القيم الثقافية انطلاقا من رؤية مالك بن نبي في تحليله الاجتماعي للثقافة، بهدف تشخيص الأسقام التي تعاني منها الشعوب المستعمرة والتي تسببت في تضرر الثقافة الأم خاصة في ظل التغيرات الاجتماعية الواسعة والعولمة الثقافية المعاصرة، ومن خلال هذا الطرح تم التوصل إلى مجموعة من النتائج يمكن تفصيلها فيما يلي:

- الهزيمة النفسية الداخلية من أكبر العوائق التي تقف أمام تفعيل القيم الثقافية في المجتمع، وحماية الهوية الثقافية في ظل التغيرات الاجتماعية والعلمية المعاصرة.

- الحداثة سلاح ذو حدين، إما أن نستغلها وننتفع بثمارها، أو أن نتسمم بنفاياتها ونتحلل في مكوناتها.

- من أجـل إستراتيجية فعالة لإعادة تفعيل القيم الثقافية لابد من مراجعة داخلية للموروث الثقافي، من أجـــل بناء ذات ناقدة فاحصة لكل المعطيات المكتسبة.

- تنمية الوعي الذاتي هو الأداة المقاومة لعائق القابلية للاستعمار الذي أورثها في نفوسنا المستعمر، من أجل كسر حاجز الخوف والخنوع للآخر.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

- تحول التمثيلات الاجتماعية من النماذج الكلية النقية إلى الأفكار المدمجة التي تحوي في ثناياها سموم الفكر من الأسباب التي ساهمت في طمس الهوية الثقافية.

- مشروع تكوين مجتمع واعي يتطلب الاستفادة العملية من أطروحات الحضارة والثقافة عند بن نبي، بدل التنظير الأجوف والخالي من كل مقومات التطبيق الأمثل.

ومن بين التوصيات والمقترحات التي يمكن تقديمها في خاتمة هذا البحث هي:

- تكثيف البحوث والدراسات النقدية في أطروحات بن نبي بما يتماشى مع التغيرات الفكرية والثقافية والعلمية التي نعايشها اليوم.

- تعزيز المؤسسات التعليمية والاجتماعية بمختلف الإمكانات والوسائل التي يجب توفرها من أجل تكثيف دورات تنمية الوعي الذاتي والمجتمعي.

- تقديم برامج تأهيلية خاصة للأسر المتعلقة بأساليب التربية الذكية والسليمة للطفل، وتنمية الوعي الأسري بكل التحديات التي تواجه المجتمع اليوم.

****

6- قائمة المصادروالمراجع

6-1- المصادروالمراجع باللغة العربية

- ابن خلدون عبد الرحمن (2001). *مقدمة ابن خلدون*. دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك. (2002). *تأملات*.دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك. (2000). *مشكلة الثقافة*. تر: عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك. (1981). *الصراع الفكري في البلاد المستعمرة*. تر: عمر مسقاوي، دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك. (1991). *دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين*. دمشق، دار الفكر.
- بوكروح، نور الدين وعبد الرحمن بن جمال. (2016). *جوهر فكر مالك بن نبي*. الجزائر، دار سمر للنشر والتوزيع.
- محمد، الغزالي. (د.ت). *الغزو الثقافي يمتد في فراغنا*. دار الشروق.
- محمود، النيجري. (1991). *الأمن الثقافي العربي (التحديات وآفاق المستقبل)*. الرياض، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب.

6-2- المصادروالمراجع باللغة الأجنبية

- Bennabi, M. (1990). *Le problème de idées dans le mande Musulman (Problème d'une civilisation).* Alger: Editions Bay'yinate.
- Bennabi, M. (2005). *Les conditions de la renaissance (Problème d'une civilisation)*. Editions ANEP.
- Bennabi, M. (2014). *Idées d'un Commonwealth islamique*. El Borhane.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X Prefix: 10.46315

- Berghout, A. (2001). *The Concept of Culture and Cultural Transformation: Views of Malik ;Bennabi*. Intellectual Discourse , 9 (1), 67-83.

- Kovács, M. (2009). *Politiques culturelles en Afrique Recueil de documents de référence. Madrid*: l'Agence espagnole pour la coopération internationale au développement (AECID) dans le cadre du Programme ACERCA (Programme de formation pour le développement dans le secteur culturel Publié conjointement avec l'Observatoire des politiques culturelles en.